أول نوفمبر 1954

حرب أم ثورة[1]

ترجمة أ.شقرون أحمد

جامعة الجزائر

- - - - - - - - - - - - - - - - -

1- Jacques jurquet, Années de feu, Algérie 1954- 1956, l'Harmattan, Mémoires du xxe siècle, Paris, 1997, pp (7-11)

وقع في أول نوفمبر 1954 أحد الأحداث الأكثر تأثيرا في تاريخ القرن العشرين.

خلال السنوات الأولى من قمع أعمى وغير فعال، تكلم حكام فرنسا، الصحافة، ومعظم وسائل الإعلام عن " إعادة النظام"، " عملية الشرطة التهدئة"، ليجبروا فيما بعد على ذكر اشتباكات عسكرية واسعة النطاق. لقد أصبحوا لا يستطيعون إخفاء بأن الأمر يتعلق بحرب حقيقية استمرت خلال سبع سنوات حيث أن 30 ألف قتيل ومزيد من الجرحى لم يمنع فرنسا من فقد نهائيا، في جويلية 1962، أكبر مستعمراتها، التي تم احتلالها بقوة السلاح 130 سنة من قبل، يوما بيوم.

لاشيء يسمح بثني عزيمة الشعب الجزائري عن الحرية. لقد مرّ بالجزائر خلال تلك الفترة، مابين مليونان وثلاثة ملانين من الشبان الفرنسيين العاملين، الإحتياطيين أو الذين أعيد تجنيدهم.

إن مدة الخدمة العسكرية الإجبارية، التي حددت في الأصل بمثانية عشر شهرا، مددت إلى ثلاثين شهرا. إن الحملة التي أطلقها إتحاد الشباب الجمهوري لفرنسا (l'Union des jeunesses républicaines de France) ومنظمة الشباب الشيوعي، للطلب بتخفيض هذه المدّة من ثمانية عشر شهرا إلى خمسة عشر شهرا، إلى جانب إيداع المجموعة الشيوعية بالمجلس الوطني مشروع قانون يسير في نفس الإتجاه، لم

يكن لهما سوى تأثيرا ضيئلا، رغم العرائض التي وقعها عشرات الآلاف من الشبان.

لم يكن هناك تمرد، ولا نداء إلى الفرار من الجندية (désertion) من شأنه ان يحوّل عددا معتبرا من الجنود عن حرب استعمارية . لا مجال للمقارنة مع الرفض الجماعي الذي وقع إبّان الحرب العالمية الثانية، تحت طائلة الإبعاد والقتل، بالنسبة للأجيال السابقة الذين جندوا بالقوة في خدمة العمل الإجباري (S.T.O) بألمانيا، وذلك من قبل النّازيين والفرنسيين المتواطئين معهم.

مايزيد على مائة ألف (100.000) هارب من العمل الإجباري (réfractaires)، المختبئين في نواح شتى من فرنسا، في القرى، في الغابات أو في الجبال، كانوا يفلتون من تحريات الدرك والقوات الألمانية (wehrmacht)، ليساهموا بعد ذلك في تشكيل جماعات قتالية (Groupes de combat) ضمن المقاومة لخوض حرب التحرير إلى جانب القوات الفرنسية الداخلية.

بعض المئات فقط من بين الشبان المجندين للحفاظ على المصالح الامبريالية لفرنسا في الجزائر، رفضوا الخدمة في الجيش، بل إطلاق النار[1].غير أن الجيش الفرنسي فشل، في النهاية، في مهمة استمرارية النظام الإستعماري بالقتل الجماعي والعنف الدّموي.

- -

1 -حتى فاتح جانفي 1986، 101153 شخصا أعترف لهم بقانون الهارب من خدمة العمل الإجباري إبان الحرب العالمية الثانية(حسب المعلومات المقدمة من قبل مديرية القوانين الأساسية والإعلام التاريخي لأمانة الدولة لقدماء المحاربين)، من جهة أخرى، من أول نوفمبر 54 إلى 5 جويلية 1962، يكون قد بلغ 1800 حالة تمرد (insoumission): 700 من المجندين أو المعاد تجنيدهم رفضوا التجنيد وأقاموا بشمال أوروبا أو في اسكندينافيا، 400 من دعاة السلّم طالبوا بقانون مدني بحجّة معارضتهم للحرب (objection de conscience)، 700 تملصوا من واجبتهم العسكرية لأسباب سياسية (أنظر Le quotidien du peuple)، اللسان الماركسي – الليليني الفرنسي، في 5 نوفمبر 1977 ص 10)

دخلت هذه العملية منذئذ في ذاكرة الفرنسيين تحت إسم " حرب الجزائر".

لكن هناك حرب وحرب، فالمعنى الدقيق الذي تكتسيه هذه الكلمة، في الزمان والمكان، يخضع لشروط خاصة بالظروف التاريخية والإنسانية المتغيّرة جداً، دون الرجوع إلى المفهوم اللنينيي (léniniste) للحروب " العادلة" أو " غير العادلة". يجدر بنا الملاحظة أن الحدث الذي يهمنا يكشف لنا التناقض الحتمي الذي كانت الجزائر محلاً له، ولو عبر الدلالة (la sémantique) الخاصة به. إن " حرب الجزائر"، هذا التعبير المكتسب والمعزّز من الوجهة الفرنسية، ليس هو إلاّ " الثورة الوطنية" أو مجرد " الثورة " من الوجهة الجزائرية.

من هذه الضفة للبحر المتوسط، فإن الغضب، الضغينة (ressentiment) الحنين إلى الماضي، الإمتيازات والمكاسب الضائعة تغذى ذهنية رجعية غنية بالعنصرية. بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على اليوم الذي انطلقت فيه عملية ثورية ضد وضع محكوم عليه حكما حتميا من قبل الحركة العالمية لتصفية الإستعمار، فإن فئة من الرأي العام الفرنسي لم تستوعب بعد بحكمة وذكاء، بأن إستعمار القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في الجزائر وغيرها، يعود إلى ماضٍ قد ولىّ إلى الأبد. كم هو متناقض الموقف

الذي يسعى إلى التصالح مع ألمانيا في وقت قصير جدا، بينما يظل فيه الشعور بالضغينة والكراهية نحو الجزائر! صحيح أن الحالتين مختلفتان. لقد انتهت الحرب ضد الأول بالانتصار، وانتهت الحرب ضد الثاني بالهزيمة. لكن هل لا بد للإنهزام أن يؤدي حتما إلى إرتكاب الحماقة والإبقاء على السلوكات التي كانت حقا وراءه؟ مهما كان الأمر، فإن الثورة التحريرية الوطنية الجزائرية المظفرة لقاء ضريبة مأساوية جسيمة تزيد على مليون من الضحايا، ربما مليون ونصف، وإحراز شعب بأكمله على الاستقلال يظلان ينعتان بصفة غير لائقة بـ " حرب الجزائر"، بقلم أغلبية المؤرخين والصحافيين ورجالات السياسة الفرنسيين.

قبل أن تضع الحرب أوزارها، وضع جول روي (jules Roy) في 1960، كتابا تحت عنوان " حرب الجزائر" (la guerre d'Algérie) .

إن احصاءً مختصرا وغير مستنفيض يقدم لنا قائمة من الكتابات الصادرة تحت نفس العنوان بعد انهزام هؤلائك وانتصار أولائك: من 1969 إلى 1971، نشر إيف كوريار (Yves Courrièrs) أربعة أجزاء تحت العنوان الشامل لـ " حرب الجزائر". انطلاقا من 1971، قدمت مجلة " إيسطوريا" (Historia) 112 عددا عاديا و 20 عددا خاصًا حول " حرب الجزائر" . في 1972، تناول فيليب تريبيي (Philippe Tripier) " تشريح حرب الجزائر" (l'autopsie de la guerre

d'Algérie). في 1974، أضاف لوران تيس وفليب رات (Laurent theris et Philippe ratte) إلى عنوان كتابهما " زمان الأخطاء" (Le temps des méprises) عنوان "حرب الجزائر"، على سبيل التدقيق. في 1976 أحالت مجلتا " la nef" و " Historama" ، بدون إضافة، إلى " حرب الجزائر". في 1977، كشف هنرى جاكان (Henri jacquin) عن بعض الأسرار في " حرب الجزائر السرية". أماّ فيما يخص المؤرخين أو المخبرين الصّحفيين (reporters) فرانك فبناي (Franck Vennile) (1978)، أليستار هورن (Alistar Horne) (1980)، برنار دروز (Bernard Droz) وايفلين ليفر (Evelyne lever) (1982) وبيارمونتانون (Pierre Montagnon) (1984)، فإنهم اختاروا دون تشاور أو انتحال، تدوين تاريخ " حرب الجزائر".

وعليه فإنه من الجهة الفرنسية أو الأوروبية، حتى ولو أن هذا العنوان لا يغطى دوماً نفس الموضوع عندما يتفرغ المؤلف إلى موضوع على وجه الخصوص، فمن الجدير الإعتراف أن الأغلبية لا تؤكد على الطابع الثوري للحدث، ولا تأخذ في الحسبان إلا الجانب العسكري. إنّ اللّجوء إلى هذا العنوان ينم عن الجهل أو الاستخفاف المقصود بالشرعية التاريخية لثورة تحريرية وطنية.حتى الشيوعيون الفرنسيون، رغم إلمامهم بالمبادئ الإستراتيجية والتاكتيكية للثورات الإجتماعية أو الوطنية، اختاروا لمؤلفاتهم

عناوين تحيل إلى الحرب ولا تحيل إلى الثورة. في 1979، قام أندري موان (André Moine)، المناضل الفرنسي الذي تبوّأ، لمدة طويلة، منصب أمين الحزب الشيوعي الجزائري، بنشر مذكراته تحت عنوان: " حربي في الجزائر" (Ma Guerre d'Algérie). في 1981، قدم هانري ألاق (Henri Alleg)، الذي أشرف على فريق من المؤلفين الشيوعيين الفرنسيين، ثلاثة أجزاء تحت العنوان الذي أصبح مألوفا:" حرب الجزائر".

وتعبيرا عن الاختلاف، بل عن التعارض في التصورات المتعلقة بمجمل الحدث الذي نحن بصدده، فإنه قلما نجد إحالة إلى هذه العبارة بقلم المؤلفين الجزائريين. وبصفة ملحّة، ومن إحياء ذكرى إلى إحياء ذكرى أخرى، فإن صحافة المستعمرة (colonie) القديمة التي أصبحت أمة ودولة مستقلة، تحيل إلى مفهوم " حرب التحرير الوطنية" أو إلى " الثورة الجزائرية".

ينتج الجامعيون أخبارا تاريخية (relations historique) أو تحليلات سوسيو تاريخية، تحت عناوين، يؤكد مرماها المعنوي، المحتوى الحقيقي للحدث: الكفاح الثوري لشعب برمّته. مثلا، في 1974، أعطى محمد تقية لعمله القيم عنوان: " الجزائر المحاربة" (l'Algérie en guerre)، حيث يختلف مغزاه اختلافا بينا عن المعنى المستخدم من قبل المؤلفين الفرنسيين.

إن الترتيب المعكوس لنفس الكلمات يدخل في العبارة اختلافا جذريا على التصوّر وكذا الشأن بالنسبة لكتاب " الجزائر المحاربة" (l'Algérie en armes) الذي نشره سليمان الشيخ في 1981. ومن جهته، واعتمادا على " تجربة المكتبة الوطنية الجزائرية"، تناول محمود بوعياد، في 1974، موضوع " حرب التحرير في الأدب السمعي – البصري".

إن هذا الجدل غير المقصود إطلاقا يؤدي إلى الاستنتاجات التالية للحدث: " حرب" بالنسبة للمنهزمين، " ثورة" بالنسبة للمنتصرين. حرب للحفاظ على مواقع قديمة وإدامة وضعية استعمارية بالنسبة للبعض، وحرب تحريرية مناوئة للإستعمار، بالنسبة للبعض الآخر.